



كتابه الجديد «السلام الذي لم يأت» أثار ضجة كبرى في الدوائر الهولندية

المستعرب والديبلوماسي نيكولاس فان دام الى «الحياة»: «ديموقراطية» إسرائيل هي لليهود فقط!

□ امستردام - اسماعيل زابر



البروفسور نيكولاس فان دام ومعه الصحافي يان كولين المراسل المتخصص بشؤون الشرق الأوسط لصحيفة «فولكسكرانت» الهولندية.

والعمل على اعادة ترتيب الوقائع من اجل تعريف جمهور القراء في هولندا بعنصر الأزدواجية والمفارقة في الموقف الغربي تجاه الصراع العربي - الإسرائيلي. ثمة تغيرات كثيرة دخلت على المشهد النفسي والسياسي في الشرق الأوسط منذ نهاية الثمانينات لتفتقد تقييمها موضوعياً.

● هل تعتقد بأنه لا تزال امام العرب فرصة للحصول على حل عادل وشامل للقضية الفلسطينية؟

- يمكن تحقيق حل شامل ودائم، نعم، انما حل عادل فلا اعتقد بان هناك املاً في الوقت الحاضر لتحقيق العدل للفلسطينيين. لأن مفهوم العدل تغير ليعني «عدلاً نسبياً». وفق أي قياس وأي حقائق ننظر الى تحقيق العدل للفلسطينيين؟ هل هو قياس 1967 أو قياس 1948؟ أم ماذا؟

والفلسطينيون انفسهم يدركون هذه الحقيقة، وأنا اسمع قسماً منهم يقول: صفد، خلاص، حيفا، خلاص. انهم يقبلون بحكم الواقع ويقبلون من مساحة الحل العادل بسبب ذلك. ولكن لا يمكن العودة الى قضم مساحة الحق الفلسطيني، بفعل تمسك

فاعتقد بأنه مع الزمن حصل تحول كبير، وبشكل تدريجي، على الموقف من النزاع. ويعود الفضل جزئياً الى طبيعة المواقف التي وقفتها إسرائيل. اذكر انني التقيت الرئيس عرفات اثناء عملي

الديبلوماسي في دمشق، وقد قال لي عندها: ان مناحيم بيغن هو افضل سفرائي، وهو يعني ان بيغن بتعبيره عن المواقف الحقيقية لإسرائيل يؤدي خدمة كبيرة للفلسطينيين، تماماً كما كان يقول

الإسرائيليون عن بعض السفراء العرب الذين كانوا قبل ذلك يقدمون، بمواقفهم، خدمة مماثلة لإسرائيل.

● هل يعني هذا ان الدعم الهولندي الرسمي لإسرائيل، في الوقت الحاضر، تقلص، ام ان التغييرات لا تزال على مستوى اصحاب الرأي والمتخصصين امثالكم؟

- في هولندا لا يزال هناك انطباع يوحي بالدعم الكبير لإسرائيل، ولكن أيضاً ثمة اضاءات واسعة ومتكررة على الجانب الآخر من المسألة. وكتابي نموذج على ذلك، فقبل بضع سنوات لم يكن ممكناً طبع كتاب مثل هذا في بلادنا، الآن اصبح الامر ممكناً. واعتقد بان مواقف حكومتنا ووزير الخارجية

تغيرت. ولكن الفرق الجوهرى هو بين المواقف والفعل والى العمل الاجرائى المباشر. فليس هناك أية امكانيات للتفكير باننا بصدد فرض حظر على اسرائيل مثلاً.

● هل بوسعنا القول ان الدوافع العاطفية، وليس بالضرورة العقلية والسياسية او الاخلاقية، تلعب دوراً في الانحياز لإسرائيل لدى الرأي العام الأوروبي؟

- ليس على كل مستوى. كان للعاطفة دور في تكريس صورة خاصة عن اسرائيل جاء في الغالب من الطريقة التي تطرح بها القضية. الروايات والموسيقى والفنون تلعب احياناً دوراً حاسماً، اكثر مما تلعبه الحجج والقرائن العقلية. ولكن الوقائع لها فعلها أيضاً. لناخذ أحد الديبلوماسيين الهولنديين الذين كانوا طيلة عملهم في السفارات والبعثات الهولندية في الدول العربية اكثر اقتناعاً وتعاطفاً مع اسرائيل، ولكن عندما انتقل الى العمل في تل أبيب

كان يؤمن به. مثال الولايات المتحدة لا يحتاج الى تفسير، فهي بدلا من ان تضغط على اسرائيل نجدها في اتفاق تام مع مواقفها واحترام مطلق لرغباتها.

والقيادة الإسرائيلية بالذات لا تجد نفسها مرغمة على الانسحاب من الأراضي التي احتلتها بالقوة، ما دام ليس هناك من يطالبها بذلك. وعندما يوجد من يطالبهم بالانسحاب فهم يربطون ذلك بالتفاوض المسبق. لنقارن على سبيل الايضاح كيف تعاملت الديبلوماسية الدولية مع وضعية العراق عندما غزا الكويت، فلم يجزئ احد على القول للكويتيين: لماذا لا تتفاوضون سلماً مع العراق للانسحاب من الكويت؟

اذن النظام الديموقراطي الغربي الذي نحن بصدده لا يمتلك معالم التناسق الضرورية، وأحياناً يفضي الى ممارسات غير مقبولة بالمرّة، في نظري، ويفتقر الى الحلول اللازمة للعديد من القضايا المطروحة على المسرح الدولي، ومنها الموقف الموحد من تنفيذ المعاهدات الدولية كمعاهدة جنيف والقرارات الدولية وغيرها.

● اذا لم تتمكن الديبلوماسية والياتها الحالية من احلال السلام، او تصحيح الخلل الذي تحدثت عنه، فكيف سيكون مستقبل النزاع العربي - الإسرائيلي بنظركم؟

- تبرهن بهذا المجال سيناريوهات عدة اولها ان تواصل اسرائيل سياستها التقليدية الرامية الى خلق ومراعاة حقائق جديدة على الأرض. ولن يكون بوسع الاطراف السياسية الاخرى - حتى على الصعيد الداخلي - ان تتراجع او تعود عنها، لا سيما وان اي مشروع سيطرح سيضع مزيداً من الضغط على الفلسطينيين، ويدفع مزيداً منهم الى اليأس او الى المغادرة او التخلي عن حقوقهم.

سيناريو آخر هو انه اذا ما استمر الشلل في مساعي السلام، ولم تنتج عملية السلام اي شيء، سينفتح المجال مجدداً امام موجة من العنف. وهذا العنف، وإن كان غير مرغوب ولا مقصود، الا انه، وتحت الظروف الحالية، قد يساعد اسرائيل في الاستحواذ على كل فلسطين. مع ان تقدري، وهذا ما

■ ينتمي الديبلوماسي الهولندي نيكولاس فان دام الى جيل المستعربين الجدد في الخارجية الهولندية، وهو جيل

عبر عن صلته العميقة بالشرق بانجاز اسلافه المتميزين منذ القرن السادس عشر. ومثلما اغضب اسلاف نيكولاس فان دام من مستشرفي جامعة لينن المراجع البابوية منتصف القرن السابع عشر لاتخاذهم موقفاً ودياً من الاسلام واللغة والتراث العربيين، اغضب فان دام المتخصص بالمنطقة العربية الدوائر الصهيونية والغربية المتحيزة لإسرائيل، بمواقفه المنطقية من حس رفيع بالمسؤولية السياسية

والاخلاقية تجاه ما يتعرض له العرب والفلسطينيون بوجه خاص. وكان فان دام، المدرس لتاريخ الشرق الأوسط في جامعة امستردام، تنتقل بعد انخراطه في السلك الديبلوماسي العام 1975 بين بيروت وطرابلس الغرب وبغداد والقاهرة ودمشق كسفير لبلاده، عاش اثناءها الاجتياح الإسرائيلي للبنان، ومن بغداد شهد الاحداث العاصفة التي اعقبت احتلال الكويت ومن ثم تحريرها. كتب فان دام عن سورية مؤلفه «الصراع على السلطة في سورية» العام 1995 الذي

يعد احد المصادر النادرة في المكتبة الغربية لدراسة احوال تلك البلاد وتركيبها السوسولوجية. ولكن الاهتمام الذي رافق كتابه الأول عن الشرق الأوسط لا يقارن بما اثاره كتابه الجديد الذي صدر قبل اشهر عن دار بولاق الهولندية للنشر تحت عنوان «السلام الذي لم يأت» (بمشاركة الكاتب

الصحافي يان كولين)، من جدل. والذي يقرأ الكتاب يكاد يعطيه عنواناً آخر هو «الكليل بمكيالين»، لأنه يغطي التناقض الصارخ في السياسات الغربية تجاه الشرق الأوسط ويحذر من نتائجها وينتصر في كل صفحة من صفحاته للقضية العادلة للشعب الفلسطيني.

● في كتابكم الاخير «السلام الذي لم يأت» ذكرت اننا بحاجة الى تغييرات جذرية في السياسات الغربية الراهنة قبل التطلع الى فرصة حقيقية لبناء السلام. ما الذي يؤخر توفير تلك المستلزمات؟

السلامة، حقيقة، كما في ذلك الكتاب، الناس

يعد احد المصادر النادرة في المكتبة الغربية لدراسة احوال تلك البلاد وتركيباتها السوسولوجية. ولكن الاهتمام الذي رافق كتابه الأول عن الشرق الأوسط لا يقارن بما اثاره كتابه الجديد الذي صدر قبل اشهر عن دار بولاق الهولندية للنشر تحت عنوان «السلام الذي لم يأت» (بمشاركة الكاتب الصحافي يان كولين)، من جدل. والذي يقرأ الكتاب يكاد يعطيه عنواناً آخر هو «الكيل بمكيالين» لأنه يغطي التناقض الصارخ في السياسات الغربية تجاه الشرق الأوسط ويحذر من نتائجها وينتصر في كل صفحة من صفحاته للقضية العادلة للشعب الفلسطيني.

● في كتابكم الأخير «السلام الذي لم يأت» ذكرت أننا بحاجة الي تغييرات جذرية في السياسات الغربية الراهنة قبل التطلع الي فرصة حقيقية لبناء السلام. ما الذي يؤخر توفير تلك المستلزمات؟

- المشكلة الحقيقية تكمن في ان للكثير من الناس عندنا في الغرب وجهة انتقائية عن النزاع العربي - الاسرائيلي. فهم منقطعون عن الحقائق التاريخية والوقائع على السواء، وخلال سنوات طويلة لاحظت ان التعاطف مع اسرائيل هو الذي يشكل منظورهم عن النزاع. وتعلم ان الذين يتعاطفون لا يباليون بالوقائع والحقائق. هذا الامر دعوته الكيل بمكيالين، فهم اذا اعتبروا ان بلداً صديقاً كاسرائيل حتى لو اقترب اسوأ الافعال، فانهم سيتغافلون عن افعاله وينظرون اليه «من بين اصابع اليد» كما يقول المثل الهولندي. ولكن في حالة بلد آخر كالعراق، يطالبون بالتقيد والتنفيذ التام للقرارات الدولية ١٠٠ في المئة. مثال آخر: اسرائيل تحتل جنوب لبنان منذ حوالي عشرين عاماً ولا تزال هناك، وكان عليها الانسحاب منه من دون شروط، مئات الالاف من الناس تحولوا الي لاجئين بسبب ممارساتها، وآخر السلسلة مأساة «قانا». كل هذا واسرائيل لا تزال، ومنذ ١٩٦٧، تقوم بطلعات جوية في الاجواء اللبنانية كل يوم تقريباً. عندما كنت اقيم في بيروت كنت اشهد يومياً الطائرات الاسرائيلية وهي تخترق جدار الصوت، ومع ذلك لم يحصل التغيير اللازم في المواقف الغربية.

● اين تكمن اسباب قوة الكيل بمكيالين والازدواجية؟

- هناك اسباب كثيرة منها منطق الصحافة الغربية. يتعين، اولاً، تغيير المنطق الاعلامي السائد. وهذا امر صعب للغاية، لأن الصحافة عندنا ترغب في بيع ما يريده الناس. وأي تغيير في الرأي العام يتطلب وقتاً وجهداً على ان يحدث بشكل متدرج. هناك تدفق في المعلومات لصالح اسرائيل، كنموذج على ذلك انكر ان للصحافة الهولندية ١٥ - ٢٠ مراسلاً صحافياً مستقراً في اسرائيل، بينما ليس لدينا سوى مراسل او اثنين في جميع الدول العربية. ثمة عائق آخر امام التغيير يكمن في المضمون العملي للديموقراطية الغربية، فقواعد اللعبة الديموقراطية لا تتيح لأي من سياسيينا امكانات للمجازفة او الاقدام على عمل ما، او اتخاذ موقف يمكن ان يكلفه بعض الاصوات الانتخابية، حتى لو

السلام، او تصحيح الخلل الذي تحدثتم عنه، وكيف سيكون مستقبل النزاع العربي - الاسرائيلي بنظركم؟

- تبرز بهذا المجال سيناريوهات عدة اولها ان تواصل اسرائيل سياستها التقليدية الرامية الي خلق ومراكمة حقائق جديدة على الأرض. ولن يكون بوسع الاطراف السياسية الاخرى - حتى على الصعيد الداخلي - ان تتراجع او تعود عنها، لا سيما وان اي مشروع سيطرح سيضع مزيداً من الضغط على الفلسطينيين، ويدفع مزيداً منهم الي الياس او الي المغادرة او التخلي عن حقوقهم. سيناريو آخر هو انه اذا ما استمر الشلل في مساعي السلام، ولم تنتج عملية السلام اي شيء، سيفتح المجال مجدداً امام موجة من العنف. وهذا العنف، وإن كان غير مرغوب ولا مقصود، الا انه، وتحت الظروف الحالية، قد يساعد اسرائيل في الاستحواذ على كل فلسطين. مع ان تقديري، وهذا ما اكدت عليه في كتابي، هو انه اذا قرر الاسرائيليون ابقاء احتلالهم للقديس، ولم يجر البحث عن حل بحسم وضع المدينة، فالنزاع سيستمر لأمد طويل. لأن القدس ليست مشكلة تخص الفلسطينيين وحدهم، بل العالم العربي والعالم الاسلامي ايضاً. على العموم في هذا السيناريو، كما في كل سيناريو آخر، ثمة مصدر قوي وعميق الجذور لتجدد النزاع العنيف.

● طالما يتحدث الناس عن اسرائيل باعتبارها دولة «ديموقراطية»، وديموقراطيتها هذه معرض بتجديل وتقدير في العالم الغربي لأنها جزء او نسخة عن هذه الديموقراطية. السؤال هو: هل يمكن ان تظل الدولة بمفهومها الغربي «ديموقراطية»، فيما هي تحتل دولة اخرى وتضطهد شعبها امام انظار العالم؟

- في الحالة الاسرائيلية لسنا امام دولة ديموقراطية غربية، بل نحن امام ديموقراطية لليهود. وليس لكل الناس المقيمين على اراضيها الحقوق ذاتها، فحتى في مناطق ما قبل ١٩٦٧ لا تزال تشهد الفلسطينيين يتطلعون الي قراهم التي احتلتها اسرائيل، وقد تم تعميمها وتزويدها بالمياه والكهرباء والخدمات الاخرى، فيما هم في مساكنهم الجديدة ذاتها يفتقرون لتلك الخدمات. اعتقد بان حالة كهذه ستكون مستحيلة الحصول في الغرب او في هولندا مثلاً. طبعاً ثمة حدود معينة لفعالية الديموقراطية الاسرائيلية، ولكن المأساة هي ان قبول اسرائيل في المجال الغربي والترحيب بها كجزء منه يضيضان يداً بيد مع ادراك تلك الحقائق المؤلمة والمتعارضة مع الديموقراطية، وهذا مصدر التناقض، وهو فعلاً كيل بمكيالين، كما ذكرت في كتابي.

● كيف كان وقع هذه التناقضات والسياسات المزدوجة عليكم اثناء عملكم كمتقف مستعرب او كسفير وممثل لبلادكم في عدد من الدول العربية الأساسية؟

- لم تكن هولندا، على العموم، دولة متورطة بعمق في مرحلة الحرب العراقية - الايرانية. كنا بعتنا بعض كاسحات الألغام والسفن المساعدة. اما بالنسبة الي النزاع الاكبر، اي القضية الفلسطينية،

تغيرت. ولكن الفرق الجوهرى هو بين المواقف والفعل او العمل الاجرائي المباشر. فليس هناك أية امكانات للتفكير باننا بصدد فرض حظر على اسرائيل مثلاً.

● هل بوسعنا القول ان الدوافع العاطفية، وليس بالضرورة العقلية والسياسية او الاخلاقية، تلعب دوراً في الانحياز لاسرائيل لدى الرأي العام الأوروبي؟

- ليس على كل مستوى. كان للعاطفة دور في تكريس صورة خاصة عن اسرائيل جاء في الغالب من الطريقة التي تلحظ بها القضية، الروايات والموسيقى والفنون تلعب احياناً دوراً حاسماً، اكثر مما تلعبه الحجج والقرائن العقلية. ولكن الوقائع لها فعلها ايضاً. لناخذ احد الدبلوماسيين الهولنديين الذين كانوا طيلة عملهم في السفارات والبعثات الهولندية في الدول العربية اكثر اقتناعاً وتعاطفاً مع اسرائيل، ولكن عندما انتقل الي العمل في تل ابيب تحول الي نقض موقفه التقليدي.

اسرائيل تعكس عبر علاقاتها صورة رومانسية عن نفسها، وتنطوي هذه الرومانسية احياناً كثيرة على المفارقة، مثل كتب شلومو هيلال التي تمجد عمل الموساد، حتى ان هناك كتاباً يجسد الهجوم بالغاز السام على خالد مشعل في عمان. ومع ان هذه الكتب تؤكد بالكامل تورط الدولة الاسرائيلية بالارهاب، ولكن الامر يطرح كمغامرة رومانسية من دون الالتفات الي مدلولها القانوني والاخلاقي.

● كيف يمكن ان تتجاوز هذه المسائل كديبلوماسية دولية او كمتقنين ومواطنين؟ دولة تتبنى الارهاب وتعتدي بشكل سافر وتعتزف بمسؤوليتها عن العدوان ومع ذلك تصور هذه الجريمة باعتبارها بطولة مكللة بالرومانسية؟

- هذا بالضبط ما عنيت. الامر غير مقبول بالمرّة، ولكن الناس يركزون على العنصر الخاطيء وعلى الجوانب الهاشمية من العمل. فلو ان ليبيا، او اية دولة اخرى لا نتعاطف معها، هي التي قامت بهذه الافعال لكان الموقف مختلفاً، ولاعتبر العمل غير مقبول. خذ حالة سلمان رشدي والموقف الغربي من مجرد اعلان ايران الدعوة الي قتله، من دون ان تفعل ذلك حتى. ما وصفته بالكيل بمكيالين هو ان الاسرائيليين في عمان قاموا بالجريمة واعترفوا بها، وجاء وزير من الحكومة ليؤكد ان اسرائيل ستكسر المحاولة، ولكن لم يحصل شيء ضدها. يجري النظر الي هذه الاعمال عبر نظارات خاصة تصور الموساد كمنظمة توحى اعمالها ومغامراتها بالعبقرية، وتخفي الجانب الاخر القانوني والاخلاقي من العمل.

● امام متعلقات حرب الخليج الثانية والسياسات المتبعة تجاه المنطقة، تتردى شروط التفاعل والتعاون المتبادل بين الغرب عموماً والمنطقة العربية وتزداد بالمقابل اسباب التوتر والتطرف والنكوص الاجتماعي على اكثر من مستوى ومكان: فلسطين والسودان والجزائر ومصر، واخيراً العراق. الا يبعث ذلك على القلق او يدفع لمراجعة تلك السياسات؟

- لا، لن يستفيد احد من السياسات المتبعة، ولذلك كانت محاولتي في الكتاب ابراز المخاطر،

الاسرائيلي. ثمة تغيرات كثيرة دخلت على المشهد النفسي والسياسي في الشرق الأوسط منذ نهاية الثمانينات نفتقد تقييمها موضوعياً.

● هل تعتقد بان لا تزال امام العرب فرصة للحصول على حل عادل وشامل للقضية الفلسطينية؟

- يمكن تحقيق حل شامل ودايم، نعم، انما حل عادل فلا اعتقد بان هنالك املاً في الوقت الحاضر لتحقيق العدل للفلسطينيين. لأن مفهوم العدل تغير ليعني «عدلاً نسبياً». وفق اي قياس واي حقائق ننظر الي تحقيق العدل للفلسطينيين؟ هل هو قياس ١٩٦٧ او قياس ١٩٤٨ ام ماذا؟

والفلسطينيون انفسهم يدركون هذه الحقيقة، وأنا اسمع قسماً منهم يقول: صفد، خلاص. حيفا، خلاص. انهم يقبلون بحكم الواقع ويقصون من مساحة الحل العادل بسبب ذلك. ولكن لا يمكن العودة الي قضم مساحة الحق الفلسطيني، بفعل تمسك الاسرائيليين بمقولة الامر الواقع والزمن. واشدد على انه اذا ما جرى الحل على هذه الاسس فسيعني استمرار جذوة الحروب واستمرار النزاع حقبة اخرى. اخشى ان الاسرائيليين يستغلون حقيقة ان الوقت يعمل لصالحهم وضد الفلسطينيين.

● ثمة من يقول، في الشرق الأوسط وفي الغرب الأوروبي خصوصاً، ان افاق السلام كانت ستبدو افضل لو لم تات حكومة التحالف الليكودي برئاسة نتانياهو الي الحكم بعد اغتيال اسحق رابين. هل توافقون على هذا الاستنتاج؟

- للوهلة الأولى، ومن حيث المظهر الخارجي، يبدو الامر كذلك. ولكني اعتقد بان جوهر سياسات العمل وتحالف ليكود واحد. الموضوع الرئيسي (القدس، ملف اللاجئين، الأمن الاسرائيلي) هو ذاته، انما يجري الحديث عنه بصيغة مختلفة. وكلما استمر الحديث واطال عن الانسحاب من الأراضي الفلسطينية، كلما استمر احتلالها وظلت امكانات فرض وقائع جديدة على الارض بيد الاسرائيليين. وفيما ليكود يقول ويصرح من دون لف او دوران بما يريد، فمع حزب العمل، على العكس، سيجري التداول بنسبة مئوية اعلى من الانسحابات، انما ستأخذ المفاوضات والمسائل الاخرى عشر سنوات او اكثر. واعتقد بان الوقائع العديدة تؤكد ان الفروقات بين الجانبين طفيفة للغاية، لا سيما وان تعاقب حكومات العمل وليكود على السلطة لم يغير من جوهر الاشياء.

● كيف تقيم دور المستعربين في الديبلوماسية الهولندية؟

- وضع المستعربين في وزارة الخارجية الهولندية افضل كثيراً مما كان في السابق. كان ثمة احساس ينتقص احياناً من وطنية المستعرب، او يشكك في اخلاصه المهني. الامر تغير مع الزمن وتبدد الكثير من الاوهام. من جهة اخرى لا تشعر الحكومات العربية بالسعادة من وجود سفير يتقن لغة اهل البلاد، وبعض العواصم العربية كان يشدد الرقابة على السفراء المستعربين اكثر من غيرهم... لاسباب عدة.